الجسم في ما لا نهاية ...

قصة بقلم رحيم سعد السيد

قال صديقي وهو يسحب المخاط من انفه : « تصور ... انا آكل الضياع وأنبرز لا شيء ! » . أشحت بوجهي « الله يقرفك ! » . قال وهو يمسح أنفه : « لا شيء يقرفني أكثر من الزكام » . قلت : « اعطني سيجارة » . قال : « ليس معي سوى سجائر بالنعناع .. اسمع ، سأقرأ عليك فصلا من هذه النظرات الفلسفية .. انه كتاب جديد » . أنا أكره الفلسفة .. هي فم هائل ينفخ في مرآتي ويصدع رأسي . قال مدرس الطبيعة : « لقد أخطأت .. مالك فالح هكذا ؟!.. تضع مرآة مقعرة مكان المحدبة ؟! » . ونظرت اليه ... رأته عيناي يبتسم في سخرية . كان منظاره الابيض السميك يهزني .. رأسه صغير ومقدمته صلعاء حتى المنتصف . أنفه دقيق ووجهه حليق دائما ، لامع كالشمس . قال حالي : خذ كل الدرجات ودعني .. أنت رمز من رموز العالم التي ترهقني . ولم يترجم لساني .. ذلك الجبان !

وتركت صديقي يقرأ ، وقد ضحك مني وقال : « اذهب للبحر.. ان الفلسفة هي روحنا يا بني .. يا للقرف ! » .

وذهبت لاحدق في البحر فوجدتها تحدق . كانت تجلس على مائدة يفصلها عن مائدتي حاجز مكون من قضيبين حديديين في وضع أفقي ... كانت دقيقة الجسم ، سمراء ، طويلة الشعر ، حالكته . ورأيت جرأة عينيها لما لمحتني أحدق فيها فنظرت الي طويلا وعيناي في عينيها ، ثم انسحبت أنا بعيني بينما مدت لسانها الى الخارج في بساطة طفولية ساحرة وأمرته على كوب الجيلاتي المصنوع من الورق المقوى . وواصلت التحديق في البحر . كان ضوء الكازينو خافتا ، وكان معظم الموائد خاليا . وطير الهواء شعرها فوق كوب الجيلاتي فانغمس فيه فسحبته ومسحته بلسانها كالقطة الناصعة البياض التي تجري في بيتنا . وجاءت طفلة مسرعة نحوها فضاحكتها وأعطتها بقية الكوب .. ثم أسرت الطفلة اليها ببضع كلمات فقامت معها على الفور ، وخرجت من الكازينو تاركة حقيبة يدها ، وجريدة على المائدة .. كدت أقوم لالحق بها وقد ظننت انها قد نسيت حاجاتها ، ولكنها نظرت للخلف مما دلني على انها تعرف ، وسترجع ثانية .

وكان ضوء الفنار يضرب السماء فجأة ثم يذهب فجأة .. وقفزت الى مخيلتي صورة الرأس الدقيق النصف أصلع لمدرس الطبيعة .. قال لي يومها : « الشعاع منكسر ... نسيت تضع أسهما في مسمار الاشعة .. أنت مسطول ؟! » .

ويومها جلست في مقعدي قبل أن يتم كلامه فطردني من الدرس ، فخرجت وأنا أحس براحة ، فاما خطر لي ان الناظر قد يقابلني ، اضطربت ، لكني ذهبت الى ملعب المدرسة ، ولعبت كرة سلة .

ولمحتها من بعيد قادمة مع الطفلة ، فاعتدلت وقربت مقعدي من الحاجز كي أكون في مواجهتها . وجلست . واعتلت الطفلة مقعدا ، فقالت لها : « اذهبي والعبي » . قالت الطفلة : « الولد اللطيف ذهب .. كنت ألعب معه » .

ـ « طيب .. اجلسي دون صوت » !

ولم تجب الطفلة بل استندت بظهرها الصغير الى ظهر الكرسي، واستسلمت للصمت وهي تحدق في أنوار الكورنيش الباهرة .

وزمرت عدة سيارات في الشارع . ونظرت خلفي ... كانت مشادة بين سائق سيارة وبين الرجل المكلف برعاية السيارات في الموقف ... هم كثيرون أصحاب قطع القماش الصفراء والايادي التي تمسح ظهور السيارات . لما قلت لصديقي أن لهم صفة رسمية ، وان لكل فرد منهم رخصة من البلدية ، لم يصدقني في اول الامر ، وقال ان أي فرد يمكنه القيام بهذا العمل . كنا نبحث عن عمل ، وقد أجهدنا البحث . ولما أكدت له الامر ، قلب شفته وقال : « اذا كان الامر كذلك فمن الافضل ان نكون كلابا أحرارا ... يا للقرف ! » .

وكانت هي الاخرى قد التفتت ، ولكنها عادت ونظرت الى الامام ، وتنهدت ، فتنهدت بعدها بصوت سمعته ، فالتفتت عيناها الي فظللت محدقا اليها فترة وجيزة ، وكنت أنا أول من انسحب في هذه المرة أيضا .. لكنني استرجعت نظري اليها بسرعة فوجدتها تعود بناظريها الى البحر ، وعلى زاوية فمها لمحت ابتسامة صغيرة .. أحسست بارتياح لذيذ لهذه المداعبات الصامتة فلما أحسه . ولذ لي أن أتحسس بعيني ذراعيها المتناسقتين مع قامتها .. كانتا ممتلئتين كساقيها ، تتحركان برشاقة .. وصدرها يكشف الفستان البسيط نصفه .. كان دقيقا اكتسب سمرة الشاطىء . وقفز الى الصورة ذلك التسجيل الذي لم يكن في الحسبان ...

... كانت تجلس منزوية في حديقة ميدان المحطة . كنت تقف تتابع مباراة « كرة شراب » في الشارع .. لما لمحتها تحولت عيناك اليها .. لم تكن جميلة ، لكنها كانت حزينة . والذكرى البعيدة لا تسمح للوجه أن يظهر الان تماما ... « الصورة تقديرية .. ضع العلامة السالبة ! » . مدرس الطبيعة بعويناته المقيتة وراءك . المهم .. جلست في مقعد من مقاعد الحديقة أمامها ، وأخذت تختلس النظر من وراء الجريدة المسائية في يدك الى صدرها المفتوح .. كان بياض الصدر في سواد الثوب رائعا .. وشبت بين جوانحك نار الرغبة .. تعجبت من نفسك وقلت : ريح جديدة تهب عليك .. لعلها رغبة طارئة ! لكنها في الحق ـ وكما تعلم ـ ريح متأصلة في العائلة . أتذكر الاسى على وجوه أقاربك وهم يتحدثون عن فضائح جدك في شبابه ، وكيف أضاع ثروة العائلة ؟! لماذا تتهرب ؟.. أتذكر أفكارك أنت ، والاكلات الدسمة اياها التي حلمت بها ؟!.. مسكين أنت يا صاحبي .. لم تظفر أبدا بشيء . وفتحت المرأة صدرها وأخرجت ثديها لطفلها ، ولمحت نظراتك التي توقحت اكثر فغطت ثديها وأولتك ظهرها في تأفف فتحرك موقفك ، وملأك الخوف ، وسرعان ما لملمت أطراف نفسك وأسرعت الخطى الى البيت ، وفي الليل ، دونما قصد ، حلمت . وفي الصباح التالي كنت قد نسيت ، ولكن جلسة ذات طابع خاص مع الزملاء في المدرسة جعلتك تقص عليهم ما جرى . ولما كان يجب أن يجري الكثير ، فقد أضفت الى الحكاية مواقف بعينها ... ماذا فعلت معها ، وماذا قالت لك ... وأشياء من هذا القبيل ... كنت تتكلم بحرارة ، فلم يسعهم الا أن صدقوك . ومن يومها أدخلوك فيما يسمى عندهم بزمرة « الرجال الكبار » ، وتغيرت فكرتهم عنك كمعقد ...

ان للمرء ذكريات لا يقدر ان يحدد في جلاء موقفه وشعوره منها ومن استرجاعها .

وعابث الهواء ذيل فستانها الحريري فرفعه الى ما فوق الركبة ، فسارعت بتسويته ، ومررت كفيها عليه عدة مرات كأنما تهدهده وتغريه بالسكون .. وتلفتت لترى ما اذا كان أحد قد لاحظ شيئا فلاحظت اهتمامي ، فتململت في جلستها ، ولم الحظ تعابير وجهها لانني كنت قد سحبت عيني . وهبت موجة نسيم باردة فبخرت حبات العرق على جبهتي . وشعرت انني على وشك اكتشاف عالم جديد أو سر سأدرك

كنهه عاجلا ... كثيراً ما أحس هذا الاحساس ... وذات مرة ، وقفت مندفعا مكتشفا خطأ في حل مسألة ضوء ... وضحك مدرس الطبيعة مبينا عن سن ضائعة في الفك السفلي ... وقال :

ـ « لا تغضب .. أعد دراسة المسألة ، وضع في اعتبارك ان الجسم في ما لا نهاية ! » .

رفع صديقي رأسه من فوق كتابه ، وأشار ناحيتي : « رأي جديد في قضية الوجود » .

أشرت بيدي اليه في سأم ، فقام وانتقل الى مائدتي ، وقال : « مالك ؟ » . قلت : « لا شيء .. أنا على وشك ادراك الحقيقة » . وغمزت ناحية صاحبة العيون الجريئة ، فلمحها وضحك وقال : « أنت تعرف تقديري لاشجار الجميز .. لكنك مسكين يا عبد اللعب الدقيقة ... طول عمرك خائب .. » .

أسكته باشارة ، واختلست النظر اليها ، وقلت هامسا : « وماذا يمنع ؟! » . قال : « وماذا منعك أنت من قبل ؟.. جرب أن تحادثها .. ناقشها في مسألة الوجود الانساني مثلا » ..

وقهقه بصوت عال ، ثم قال وقد وقف : « انني ذاهب .. سألقاك غـدا .. » .

وذهب . لعنته في سري ، فقد جعل أحاسيس الراحة في صدري تضطرب . وعملت جهدي أن أتمالك نفسي ، وأتناسى كل شيء .. وأزحت مقعدي حتى مس الحاجز ، فالتفتت ناحيتي ، وكانت تبتسم ؟.. في الحقيقة ، أنا لا أستطيع أن أؤكد انها ابتسامة .. كان وجهها دقيقا مسمسما بحيث ان التعابير الدقيقة لا تبين فيه بوضوح . وفي هذه المرة قاومت الهزيمة أطول من المرات السابقة ، وكانت هي التي تنحت بعينيها ، ورجعت الى التحديق في البحر والافق الغارق في السواد .

وأخذت أصابعها تعبث بشغل الابرة في لا مبالاة متقنة ، وهفهف الثوب الحريري البسيط وشد على حجرها فظهرت بعض تفاصيل فخذيها شف عنها الثوب ... وشممت على الفور تلك الرائحة التي راودت أنفي وأنا أرقب ظل الجارة مراراً وهي تستبدل ثيابها في حجرة نومها المواجهة لحجرتي . كان زوجها شيخا ، وكانت هي ايضا كبيرة ، لكني رأيتها من ذلك النوع الشهي . وكانت تنشر ملابسها الداخلية في الصف الاول من منشر الشرفة .

وتململت الصغيرة ونظرت الى صاحبتها اللاهية بالتريكو لعلها تحادثها ، فلما لحظت شرودها نزلت عن مقعدها ، وصفق صوتها الصغير أذني :

ـ « ماما ... أما حان موعد الرجوع ؟ » .

أشفقت على نفسي وعليها ... كان لفظ ماما صدمة لي . كانت لها صفات العذراء في كل شيء الا النظرات الجريئة . كانت أصغر وأرق من أن تكون زوجة وأما .. كانت لعبة !

نفس الاحساس عندما انطفأ حماس مدرس الطبيعة النصف اصلع يقول :

ـ « لا تغضب .. أعد دراسة المسألة ، وضع في اعتبارك ان الجسم في ما لا نهاية ! » .

كأنه يخرج لي لسانه في سخرية ... ولم أكن أحب أن أفترض ذلك الوضع اللانهائي .. وأحب زميلي أن يفلسف نظريات الضوء ، فقال : « اللانهاية نوع من الضياع .. انه ضياع أبدي .. يا للقرف » وقال المدرس وهو يقذفه بقطعة طباشير : « اجلس .. دع الفلسفة لك .. جاءك القرف » ! وكنت كلما هممت بالوقوف لتصحيح قول ظننته خطأ ، أرد نفسي ثانية ، وقوله الساخر يرن في أذني : « ضع في اعتبارك ان الجسم في ما لا نهاية ! » .

آه يا معلمي .. لا تعذبني ... أحسم اي عدد من الدرجات ... خذها كلها ... فقط ، ابعد عني رأسك النصف أصلع ، ودعني أعيش مستريحا ...

طالب بكلية العلوم ـ جامعة الاسكندرية **رجب سعد السيد**

صدر حديثاً

باباهمنغواي

بقلم ا. هوتشنر

ترجمة ماهر البطوطي

هوتشنر صحفي شاب اقبل على همنغواي يطلب منه حديثا ادبيا وهو يقول له : « اذا لم تعطني الحديث ، طردوني من الصحيفة » فاستجاب الروائي الاميركي الكبير للصحفي الذي اصبح صديقا يلازمه كظله طوال اربعة عشر عاما ، حتى موته .

و « بابا همنغواي » هو الكتاب الذي اصدره هوتشنر اخيرا عن حياةهمنغواي وكتبه باسلوب روائي شبيه باسلوب همنغواي نفسه ، وكشف فيه النقاب عن ان الكاتب الاميركي انتحر انتحاراً ، ولم يقتل خطأ وهو يقلب مسدسه ، كما زعمت زوجته التي اقامت الدعوى الان على هوتشنر بسبب الاسرار الكثيرة التي كشف عنها في كتابه والمتعلقة بحياة همنغواي الخاصة ، ومنها اتهامه باغواء فتاة قاصرة في اسبانيا ومحاولته التهرب من دفع الضرائب الخ ..

كتاب ممتع لا يزال يثير ضجة كبيرة في اوساط العالم الادبية .

منشورات دار الاداب